نظرات فى الطباق القرآنى

تأليف

د/ صباح عبيد دراز

وكيل الكلية ورئيس قسم البلاغة والنقد

الطباق فى القرآن الكريم

ذكر الدكتور لطفى عبد البديع " وهو أكثر الحداثيين اتصالا بالتراث البلاغى ، فى كتابة " فلسفة المجاز " مايعد فاصلا بين أسلوب القرآن وبين أساليب البشر ، قال " القرآن لغة الوحى الإلهى المنزل ، من السماء ، يتداخل فيه عالم الغيب وعالم الشهادة ، واضافة ما أضيف إلى الله عز جل فى القرآن ، من باب آخر ، غير باب المحسوس والمعقول؛ بحيث لايصح أن يستبدل بلفظه لفظ آخر " كما أشار الغزالى.

فالوحى من عالم علوى، مغاير للعالم الأرضى بقوانينه ، وتاريخه، فهذا محدود ، وذاك باق خالد، لأنه لغة السماء التى تريد أن تحمل أبناء الأرض اليها ، وتجعل من الوجود الانسانى وجودا آخر، له تعلق بالسماء ، يعى الكلمة النازلة منها ، على نحو ماتقتضيه صفتها الاليهة، فالزمان المكان لاوجه لهما مع القول الالهى، لأنه يستوعب ذلك ، ومايتعلق من حدثان؛ لأنه تعلق بالوجود المطلق ، الذى تستقيم باحكامه الالهية الحياة البشرية ، ومصيرها ، وهذا من بعض معانى قوله تعالى: " إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا" وقوله تعالى " يايحيى خذ الكتاب بقوة " كأن هذه القوة هى هذا التوتر الذى يرتجف معه القلب بالكيان الانسانى (له فلسفة المجاز) (فلسفة المجاز ص ٤٤ وما بعدها) .

واذا كانت اللغة تعبيرا عن الوجود الذى نعيشه ، حسيا ، أو معنويا فكل ما فى هذا الوجود أما مضاد أو موافق أو مخالف ، فالطباق طبيعى فى طبيعة الوجود ونسيج اللغة.

والمهم هو استدعاء هذه المتقابلات فى أسلوب واحد حسب المقام. وكل مافى هذا الكون له مضاد أو نقيض أو مغاير ، من الصفات والمعانى والمحسوسات ، والمهم توظيفها فى التراكيب والأداء.

وإذا كان هذا فى طبع الحياة واللغة فكيف يكن محسنا اللهم إلا إذا قصدنا بالحسن البلاغى مايقصده عبد القاهر من أنه فضيلة اذا تخلفت ، نزل الكلام عن طبقة البلاغة.

ثم إن قانون التغيير والتقلب ، فى الحياة الأحياء ، بما يمثل من ثنائيات متقابلة متبادلة، قانون دائب مستمر فى الحياة المادية والعقلية والنفسية والروحية.

أليس الكون سماء وأرضا ، ونهارا وليلا . وشمسا وظلاما وسهلا وجبلا . وماء وقفرا ؟

أليست حياة البشر عزا وذلا ، وغني وفقرا ، وعلما وجهلا وحياة وموتا . إلى مالايحصى؟

أليس الانسان مجموعة صفات متنازعة، وحالات متفاته؛ متقابلة من صحة ومرض ، وطفولة وشيخوخة ، وسعادة وشقاوة ، وايمان وكفر وحب وبغض إلى مالايعد؟

ولذا كان الطباق فى القرآن يصور الكون بما فيه ، والحياة بمفهومها الوسيع ، ثم يرقى الى مالايقترب منه عقل أو خيال أو وهم من عالم الغيب ، وصفات الجبار ، سبحانه، يتلقاه الانسان خاشعا منزها مقهورا.

ثم عالم الموت والقبض ، وعالم البعث الحساب ، والميزان ومشاهد القيامة ، والجنة ودرجاتها ، وألوان نعيمها ، وسمات أصحابها ، وأحاديثهم ، ثم النار ودركاتها ، وصنوف عذابها ونعوذ بالله العظيم منها - ثم أصناف عذابها ، وآلام آصحابها وجؤراهم ، فى هذا العالم الأخروى ، بقوانينه الخاصة البعيدة عن سنن الله في الدنيا ، فأهل الجنة ، وأهل النار يتراءون ، ويتناقشون والحواجز بين الجنة والنار لاتحول دون الرؤية أو النقاش ، وكأن هذه المناقشات ، تتمة للجدالات ، والصراعات التي كانت بينهم فى الدنيا ، وهو الصراع الدائم بين الايمان والكفر ، والحق والباطل ، والهدى والضلال.

* * * * *

رب العزة وصفاته الحسنى :

قال الله تعالى " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " وقال سبحانه : "ولله المثل الأعلى " وقال تعالى :" سبحان ربك العزة عما يصفون " والله عز وجل واحد أحد ، فى ذاته وصفاته ، وأفعاله ، لاشريك له ، ولاشبيه ولامثيل: "ليس كمثله شئ" وهو السميع البصير".

لابعلم كنه ذاته سبحانه ، ولاحقيقة صفاته إلا هو عز وجل وكل ماخلق الله وأبدع وقدر ودبر ، مما نعلم ، ومالانعلم إنما هو من آثار صفاته.

وهذه الصفات حين تتقابل كالمحيى - المميت - المعز - المذل - المبدئ - المعيد : ترد على أنحاء مختلفة ، فى الذكر الحكيم : تعرف الله تعالى بصفاته ومجلى صفاته لعباده وتعليمهم حمده وتقديسه ، وأن ملكه وتدبيره ومايجرى فيه إنما هو من متعلقات بعض صفاته ، دلالة الوحدانية في الذات والصفات ، والأفعال ، وهو أخطر أغراض القرآن، ثم للتحقق أو التخلق على قدر طاقة العبد، كما نبه العلماء.

وإثبات هذه الصفات لله تعالى: يعنى تفرده بها ، فلا يتصف بها سواه كقوله تعالى:

" هو الأول والاخر والظاهر والباطن" وهى صفات كمال كما أن مايتصف به خلقه وهى مخلوقة أيضا ناقصة يستحيل أن يتصف البارى بها ، فهى منفية عنه لاسيما إذا كانت صفة نقص : كقوله تعالى" كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام".

" لاتأخذه سنة لانوم " وهو يطعم ولايطعم" هذا العالم من سموات وما فوقها وأرض وماتحتها ومافيها مما لايحيط به الا مالك الملك ، وتصريفه وتدبيره، ثم مابعده من عوالم الآخرة إنما هو آثار صفاته ، ومجلى أسمائه ، كما أن آيات الله تعالى فى القرآن الكريم

وهو كلامه القديم تسرى فيه الصفات القدسية ، ولفظ الجلالة وضمائره القدسية في كل أغراض القرآن الكريم ، من توحيد الله تعالي ، وصدق القرآن ، والرسالة والرسل ، والمنهج الالهى الذى جاء به الرسل وكمل بالخاتم صلى الله عليه وسلم ثم تثبيت المؤمنين ، وتكذيب المعاندين ثم البعث الجزاء.

وهذه الصفات القدسية قد تأتى على هيئة الاسماء : كقوله تعالى : نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم " أو هيئة الافعال: كقوله تعالى: "ان بطش ربك لشديد ، إنه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد، فعال لما يريد" لازمة ، أو متعدية كما ترى.

وحين تتقابل هذه الصفات ، أو تتقابل آثارها ، فانما تأتى على أنحاء مختلفة، فى القرآن الكريم من حيث موقعها من الآيات صدرها أو سطها أو نهايتها ، ومن حيث ارتباطها بالزمن أفعالا أو بدون زمان كالأسماء ، ومن حيث صياغتها كالجعل ، والانشاء، والخلق ، والغافر ، والغفار ، ويحيى أو يخرج الحى ، ونحو ذلك فى دقة معجزة ، ملائمة لأغراض السور العامة واغراض الآيات الخاصة ، ومناسبة للسياقات والمقامات.

وفى مجال اثبات الاحياء ، والاماته لله تعالى جاء فى آيات كثيرة الفعل المضارع منزلا منزلة اللازم لاثبات أصل الصفة لله تعالى وحده، دون غيره قال تعالى من سورة المؤمنون " وهو الذى

يحيى ويميت ، وله اختلاف الليل والنهار" ومن سورة الأعراف " لا إله إلا هو يحيى يميت فآمنوا بالله ورسوله" فهو وحده القادر الجامع بين الاحياء والاماته ، وقد تناوب ذلك الانسان بقدرة الله وقدره " كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتا ، فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون" البقرة وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور " سورة الحج.

وقد يكون الحياة من الموت ، والموت نبعا للحياة ، فالشئ يخرج من ضده قدرة الهية قاهرة : "تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى " من آيات التضرع بصفات الله وآثار صفاته من آيات آل عمران . قال البيضاوى " عقب ذلك" الآية الأولى " بيان قدرته ، على معاقبة الليل والنهار ، والموت والحياة ، وسعة فضله ، دلالة على أن من قدر على ذلك قدر على معاقبة الذل والعز وايتاء الملك ونزعه" تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء "واخراج الحى من الميت وبالعكس : انشاء الحيوانات من موادها ، وإماتتها بيد أن الآية كما يرى كثير من المحدثين أعم وأعمق تتناول كل مافيه حياة من انسان وحيوان ونبات، أرض قفر تنبت زرعا " وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت " ونواة تخرج نخلا "إن الله فالق الحب النوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى " وهذه آية الانعام التى جاء فيها اخراج الميت باسم الفاعل مخرج قال الكرمانى لانه وقع بين أسماء الفاعلين " فالق الحب النوى " فالق الاصباح " (أسرار التكرار).

والواقع أن قصة الحياة والموت تسرى فى الموجودات وتداخل فى الكائنات حتى الخلايا التى تولد والتى تموت .

ثم ان الإحياء والإماتة قد تتناول القلوب فتومن بعد كفر وتتناول الأرض الجرز ينزل عليها الماء فتنتفض حياة بالزرع البهيج : " أو من مكان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظالمات ليس بخارج منها" "وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا " واحياء الأرض بعد موتها هو أمر محسوس كان دليلا دامغا على البعث واحياء الموتى للحساب " فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى ، وهو على كل شئ قدير "الروم " "رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج " سورة ق " وقد يقصد القرآن موازنة بين أحياء القلوب وامواتها تكريما للايمان به سبحانه: " ومايستوى الأحياء ولا الاموات" واذا كانت الآلهة المزعومة لاتملك القدرة على الموت والحياة والبعث " ولايملكون موتا ولا حياة فان الله تبارك يخلق ذلك خلقا" الذى خلق الموت والحياة " ونأمل كيف يكون الموت خلقا من خلق الله .

ثم إن الذين كفروا بالله العظيم لاينعمون حتى بنعمة الموت فى الآخرة فيستريحون من العذاب، ولايحيون مايسمى حياة " انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لايموت فيها ولايحيا" سوره طه وكأن هذه الآية رد وعقاب على من ينكر البعث فى سورة مريم" ويقول الانسان ائذا مامت لسوئى أخرج حيا" وفى سورة الأعلى " الذى يصلى النار

الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيا" وقدم الموت لانه املهم الذى يؤملون ليستريحوا من العذاب.

لكن الموت فى الجنة قطع لنعيمها ولذا كان الوعد والرضا لاهل الجنة " لايذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ، ووقاهم عذاب الجحيم " واذا كان الله هو المحيى المميت ولم يدع ذلك أحد لم يحتج الاسلوب توكيدا فى ثناء ابراهيم الخليل" والذى يميتنى ثم يحيين " وقد يحتاج الامر توكيدا لمن يعتقد من الطغاة انه قادر على منح الناس الحياة بعدم امانتهم ، أو ازهاق أرواحهم كما قال ابراهيم للنمروذ " واذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال انا أحيى وأميت، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر" "لان سر الحياة بالروح ونفخها أو قبضها بيد الرحمن " وأنه هو أمات وأحيا" ولذا كان من أقوى أساليب الأمر بالتوكل للنبى محمد صلى الله عليه وسلم.

"وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده " وكان الحى القيوم من أسماء الجلال والعظمة وجاءا متلازمين فى آيتين آية الكرسى وأول سورة آل عمران كما نبه النبى صلى الله عليه وسلم وأرشد فى حديثه الصحيح.

قال الشهاب فى اية الفرقان "وتوكل على الحى الذى لايموت" تعليقا على البيضاوى " فيه اشارة إلى أنه يفيد الحصر، لأن أصله

توكل على الله ، فلما عدل عنه الى ماذكر ، أفاد بفحواه أن من ليس كذلك لايصح التوكل عليه ، أما غير الاحياء كالأصنام فظاهر وأما من يموت فلأنهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم ، ولذا قيل انه لايصح لذى عقل أن يثق بمخلوق بعد نزول هذه الآية " حاشية الشهاب ٦/٤٤٣".

وهذا الغرض أوجزنا لك فيه ويمكن أن تسير علي هذا فى معالجة الاغراض القرآنية.

وقال الله تعالى " ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم - وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، بل له مافى السموات والأرض كل له قانتون ، بديع السموات والأرض.

واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون " البقرة ١١٥-١١٧.

والآية الأولى تطيب خاطر المؤمنين ، وتبين لهم رحمة ربهم فاذا منعوا - وقتها - من الصلاة فى المسجد الحرام أو الأقصى ، فقد جعلت لهم- وحدهم - الأرض مسجدا وطهورا ويريد بالمشرق والمغرب: ناحيتى الأرض وهو كناية عن الأرض كلها أى لله الأرض كلها وهو عالم مطلع بما يفعل فيها . الشهاب ٢/٢٢٧.

وقد جاء المشرق مقابلا للمغرب كناية عن الأرض فى خمس آيات تناسب مقامها وجاء " رب المشرقين ورب المغربين " فى مقابلة المشرقين بالمغربين فى آية واحدة ، كما جاء الجمع " المشارق والمغارب فى آيتين .

وجاء فى المفرد " سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب " ١٤٢ البقرة وهو رد مفحم على من أنكر تحويل القبلة من الأقصى الى البيت الحرام ، فان الأرض كلها لله والمهم التقيد باوامر الله تعالى .

والعلماء على أن أل للجنس فى والمشرق المغرب مفردا ومثنى وجمعا للاحاطة والشمول ، فالمعنى واحد وإن ذكر بعضهم ان المراد بالمشرقين مشرق الشتاء والصيف أو مشرق الشمس والقمر السابقين ومغربهما فى قوله تعالى " الشمس والقمر بحسبان أو المراد مشرق الشمس ومشرق غيرها فيتناول كل المشارق والمغارب .

وذكر بعض المعاصرين أن للشمس فى كل لحظة مشرقا ومغربا لأن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وهو دليل قرآنى على كروية الأرض . يبقى سر التعبير بالافراد والتثنية والجمع ويبدو - والله أعلم - ان الافراد جاء على الأصل من الاشارة الى طرفى الشئ كالمشرق والمغرب والمراد الأرض ، والسماوات والأرض ، والمراد الكون، أما التثنية فى سورة الرحمن ، فهو للتناسب مع ثنائيات السورة - الشمس والقمر - النجم والشجر - البحرين اللؤلؤ والمرجان - الإنس والجان - والثقلان - ولمن خاف مقام ربه جنتان ، وهذا يرشح رأى الرازى فيما ذكره من وجوه وهو مشرق الشمس والقمر ومغربهما ، أما آية المعارج فقد جاءت فى سياق غاضب منكر على الكفار اسراعهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخذوا منه

ومن كلامه صلى الله عليه وسلم هزؤا " فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، " فجاء القسم المهول برب المشارق والمغارب وفي هذا الجمع تعظيم وإجلال للقوى المقتد رب كل شئ القادر على إهلاكهم والاتيان بخلق أمثل منهم " فلا اقسم برب المشارق والمغارب، إنا لقادرون علي أن نبدل خيرا منهم ومانحن بمسبوقين " أى بمغلوبين أن أردنا ذلك. والله أعلم وراجع : الشهاب ٢٤٧/٨ والرازى ٢١/٤ ، ٢٩، ٩٩ ، ١٣٢/٣٠ وتفسير المنار ٣٥٧/١.

ونعودالى الآيتين : وقالوا اتخذا الله ولدا سبحانه بل له مافى السموات والأرض ... الايتان ونلحظ هنا : أن ما ادعى باطلا من شريك لله سبحانه أولد وهو مقابل باطل معدوم يأتى فى القرآن فى أساليب تفيد نفيه وإنكاره وابطاله كالاستفهام الانكارى أو النفى الصراح أو منسوبا إلى قوله الكافرين وزعمهم : نحو : أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولايطعم " " ثم يلد ولم يولد" " وقالوا تخذ الرحمن ولدا".

ثانيا : تأتى الادلة البرهانية علي أنه بديع السموات والأرض ويملك هذ الكون وما فيه فكيف يكون المملوك الناقص ندا أو ولدا للخالق المبدع سبحانه ويكثر فى القرآن هذا الدليل: وهو دليل الخلق والايجاد والابداع فى آيات كثيرة على وحدانية الله تعالى وتقدس.

والسموات والأرض بالجمع والافراد كناية عن الكون بذكر طرفيه الأعلى والاسفل.

ويكثـر ذلك فى اثبـات صـفـات الملك والقـدرة والخلق والعلم والوحـدانيـة ونحـوها وصـدق القـرآن والرسـالة في نحـو مـائة وثمـان وثمانين موضعا ولم تتقدم الأرض الا فى موضعين الأول قوله تعالى : " يوم تبـدل الأرض غـيـر الأرض والسـمـوات" وتبـدل الأرض التى يعيش عليها الناس يوم القيامة أولى بالتقديم لارتباطهم بها.

كما قدمت الأرض فى قوله تعالى :

" قل أرأيتم مـا تدعـون من دون الله أرونى مـاذا خلقـوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات " لأن الأرض يعيشون عليها وبها ويعرفونها فهم الصق بها من السموات ، والموضعان لم يأت فيهما السموات والأرض أو ما فيهما متعاطفين أما إذا جاءت السماء مفردة ومعها الأرض فالأكثر تقديم السماء ، لأنها جهة العلو ، ومهبط الوحي كقوله تعالى :

" وما خلقنا السماء والأرض ومابينهما لاعبين" وقال سبحانه : " ما من غائبة فى السماء والأرض الا فى كتاب مبين " فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون".

وتقدم الأرض على السماء اذا اقتضى المقام كأن يكون الخطاب للبشر أو يتعلق بأمر فى الأرض يهمهم أو كونه محسوسا معروفا لهم أو غرسا للمراقبة لله تعالى فى أعمالهم ، أو منا عليهم أو عيدا الى غير ذلك مما علاقة الناس فيه أقوى بالأرض ، وألصق ، كقوله " الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء " " البقرة" ومايعزب عن ربك

من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء " يونس " " يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها " سبأ " راجع المعجم المفهرس.

وهناك ثنائيات قرآنية ، كالليل والنهار، والظلمات والنور والهدي والضلال. والحق والباطل ، والمغفرة العذاب على اختلاف فى كثرة ورودها ، أو قلته ، تأتى فى أغراض قرآنية عدة مع التصوير والتأكيد وقوة التأثير . وهى لاتبعد كثيرا عن الحياة والموت المعنويين، كما أنها تمثل قصة النور والظلمة حسيا ومعنويا ، قال الله تعالى : " ومايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، ومايستوى الأحياء ولا الأموات " والكفر والايمان جاءا فى الآيات فى معارض متنوعة بين عمى وبصر ، وظلمات ونور، وقدم العمى والظلمات المعنوية لأنها لاتستوى ولاترقى وهى سلب الى أفق البصر المدرك والنور الهادى ، ثم مافيها من زجر للضالين الذين يظنون مساواتهم للمؤمنين، هذا أسلوب قرآنى غالب فى العمى والظلمات في تقديم الأعمى على البصير والظلمات على النور ثم غير النسق فقدم الظل مرادا به ثواب الايمان والاحياء مرادا به المؤمنون لسبق رحمه الله ، والطمأنينة النفسية الى الظل الوارف ، والحياة المثمرة " وليكون الظل مع ماقبله علي نمط واحد ، فان العمى ، والظلمة والظل متناسبة " الشهاب ٢٢٣/٧ وتلحظ تكرار لا النافية لافادة الاستقلال تأكيدا شديدا لنفى الاستواء بين الكفر والايمان بل كرر فعل الاستواء منفيا بين الأحياء والأموات حسما للقضية وأن الضدين لايستويان ولايلتقيان.

والأعمى والبصر مثلان للكافر والمؤمن، جاءا مقرونين فى خمسة أساليب ، تجمعها نفى الاستواء صريحا أو على طريق الاستفهام " هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور" الرعد.

وقال تعالى: " الله ولى آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور، والذين كفورا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات "البقرة" وقد توقف العلماء عند الفعل "يخرج" مضارعا مع أن الذين آمنوا اخرجوا فعلا من الظلمات ، والذين كفورا فى ظلمات أبدا قال البيضاوى والشهاب : المراد بالذين آمنوا: من آراد ايمانه ، وثبت فى علمه تعالي أنه يؤمن والذين كفورا يخرجون من النور الذى منحوه بالفطرة الى الكفر وفساد الاستعداد " الشهاب ٢/٢٣٦ وهو أصوب الآراء ، وتعبير من الظلمات الى النور " التزم فيها الفعل يخرج فى ست وأخرج فى واحدة مسندة إلى موسى عليه السلام : أن أخرج قومك من الظلمات الى النور ، " سوره ابراهيم بينما أسند الفعل الى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أربع مرات نحو قوله تعالى قبل آية موسى عليه السلام " كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور " سورة ابراهيم آية(١) بينما أسند الى رب العزة مرتين مرة فى سياق بالصلاة والسلام على رسول الله وهو سياق بنبض بالرحمة والود : " هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور " الأحزاب ".

والآية الثانية فيها قوة وجلال وجزالة ، وهى الآية الثالثة بعد آية الكرسى ولذا صدرت بلفظ الجلالة عناية رحمة وموالاة للذين آمنوا " الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات " ووعيدا طردا الذين كفرا الذين كثر أولياؤهم من الشياطين يخرجونهم الى دروب وسراديب من أنواع الظلمات وقد عكس التعبير " من النور الى الظلمات " وهو تعبير وحيد فى القرآن الكريم وتلحظ أن جملة المؤمنين بدأت بلفظ الجلالة ومن اسمائه "النور" وإنتهت بالنور ، فهى دائرة نور تحيط بالمؤمنين بينما الجملة المقابلة بدأت بالذين كفروا وهم فى أنفسهم ظلمة وانتهت بالظلمات جمعا ، فهى دائرة رهيبة من الظلام البهيم وقال الله تعالى " وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة " الإسراء .

والليل هو الأصل، والضياء طارئ عليه ، هذه الآية الكونية من دوران الأرض حول محورها . ثم دورانها حول الشمس بقدرة الرحمن عز وجل ، وتسخير هذا الكون وتكرار هذا التعاقب آية من آيات الخلق والقدرة ، بها تكون الحياة ولذا ارتبطت فى عديد من الآيات بخلق السموات والأرض ، وبالشمس والقمر " إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب " البقرة.

" وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار" ابراهيم .

وهذه الآية جاءت فى سياقات مختلفة منها اثارة التأمل والإعتبار والشكر والحمد على المنعم ذى الجلال والاكرام ، ثم المن على عباده بتسخير هذه الكائنات لتكون التقوى والتوحيد صافيا خالصا لله رب العالمين ، ثم الدعوة الي التفكير والنظر ولمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا".

وهذه الآية الكونية جاءت فى سياقات مختلفة من " اختلاف الليل والنهار . أو التسخير ، أو الجعل أو الخلق أو التقليب " يقلب الله الليل والنهار " وهناك آيات ترصد عملية تداخل النهار والليل ساعة الغروب حين يختلط الظلمة بالنور من الغرب الى الشرق ثم تمحوه شيئا فشيئا" يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا " وساعة الفجر تتقدم الأشعة من المشرق تغطى النجوم وتدفع الظلمة منحسرة الى المغرب حتى تمحى .

وقد عبر القرآن عن هذه الآية المتكررة العجيبة بالفعل " يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل".

والتكوير " يكور الليل على النهار ويكور النها على الليل " كما عبر عن ذهاب النهار بضوئه مظهرا الليل بلونه الأسود المخالف بالسلخ فى آية يس " وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون".

وعـمليـة الايلاج تدل على طريقـة تداخل أضـواء النهـار فى ظلمـات الليل وبالعكس بينمـا تدل عـمليـة التكوير علي انبـعـاث الضوء فى الأفق ثم يلف الأرض شيئا فشيئا أشبه بتكوير العمامة وكذلك انسحاب الضيـاء أمام الظلام الآتى من ناحيـة الغرب يطبق على الأفق وهذا لايكون الا اذا كانت الأرض علي هيئتها من الشمس تلك التي نراها ونقـرؤها فى علوم الفلك وقـد عـد المحـدثون هذا من الاعجاز العلمى للقرآن الكريم.

وبعد فان قصة النور والظلام حسيا ومعنويا من حيث التقابل والصراع أعمق وأوسع وأخصب وتحتـاج بحثا ليس هذا موطنه والله المستعان.

* * * * * *

اذا كانت آية الليل النهار شاملة للزمن، وأنه لله خالق كل شئ ، فهناك تقابلات فى بعض أجزاء الزمان ، بما يمثله من لون خاص ، ومن علاقة معينة بينه وبين الناس :

قال تعالى " والفجر وليل عشر ، والشفع والوتر والليل اذا يسر: وقال سبحانه " والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وما قلى " والشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها" " والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى" وتلحظ أن شدة الضوء وضجيج الحياة انما يبلغ ذروته فى الضحى وضحاها ، والنهار اذا تجلى أو جلاها " الشمس " وان الظلمة حين يتقدم الليل ، وتسيطر على الزمان والمكان فيسكن الخلق ، لا حركة لا نشاط " الليل اذا سجى ، اذا يغشاها ، اذا يغشى اذا يسرى " وهى أقسام تلفت الى مافيها من آيات وعبره وتبعث على التأمل والخشوع.

وهذه المتقابلات زمانا ومكانا كنايات عن الاحاطة ، فالسموات والأرض كناية عن كون الله الوسيع ، والمشرق والمغرب كناية عن الأرض ، وما فى السموات وما فى الأرض كناية عن خلق الله ، والانس والجن كناية عن المكلفين من الخلائق ، والليل والنهار كناية عن الزمان والمكان، النص على جزء من الزمان لفت الى مافيه من آيات باهرة ، ثم تناسبامع المقام فالضحى والليل اذا سجى ترمز الى نزول الوحى متواترا وغبطة النبى صلى الله عليه وسلم.

بذلك بعد انقطاعه وتعيير قريش بأن ربه تخلى عنه ، وظلمه الليل مناسبة لهذه الحالة النفسية التى جاءت بين الضحى فى اشراقه

القوى وبين نفى أن يكون " ربك " بهذا الخطاب للمؤنس ودعه صلى الله عليه وسلم.

وفيما سبق وغيره يلتقى الضدان ليكونا فكرة مرادة فى اثبات السلطان المطلق ، والقدرة النافذة . والقهر المهيمن لله رب العالمين، الذى يغير ولايتغير ومنه قوله تعالى : " ربنا انك تعلم مانخفى ومانعلن " " عالم الغيب والشهادة " " ويعلم مافى البر والبحر" "يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، وماينزل من السماء ومايعرج فيها" كناية عن العلم المحيط الدقيق لكل خلقه ، وفيه وعيد لمن عصى .

واذا كانت آية يس ٣٦: " سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون " دالة على عظم قدره الله واتساع ملكه وأن لله تعالي خلقا لم يجعل للبشر طريقا الي العلم به " قال فى الكشاف" ولو كانت بهم اليه حاجة لاعلمهم بما لايعلمون ، كما أعلمهم بوجود مالايعلمون " فى الحديث " مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر " فأعلمنا بوجوده واعداده ، ولم يعلمنا به ماهو " الكشاف ٣/٣٢٢.

اذا كانت الآية عامة فى الخلق ، فهذا الخلق نفسه موزع بين ذكر وأنثى " ومَاخلقَ الذكر الأنثى" .

" وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثي " وهو شامل للإنسان والحيوان والنبات حتى الذرة ومايدور حول نواتها من جسيمات متلازمة كما ذكر العلم الحديث فيه الايماء الى القدرة المقتدرة والخلق البديع وأنه وحده مالك الملك والملكوت .

وقد أشار الأستاذ سيد قطب فى التصوير الفنى الى ألوان من التقابل فى القرآن ومنها توارد حالين متقابلين على بعض النماذج البشرية كما فى سورة الهمزة :

قال تعالى " ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة انها عليهم مؤصدة ، فى عمد ممدة".

فحال الذى يهزأ من الناس ساخرا لامزا متعاليا - وهو نموذج يكثر فى كل وسط - وبخاصة اذا كان غنيا يقابلها حالة نفسه وهو منبوذ فى الحطمة تحطم كبرياءه تطلع على فؤاده مبعث الهمز واللمز لتشفيه مما به الحطمة المغلقة التى لاينقذه منها منقذ لايهتم به أحد [١] والتقابل هنا فى الزمن وصفات العز المدعى والمال وبين صفات الاذلال - والاهانة والفقر العريض والعميق.

---

(١) التصوير الفنى ٨٨ .

مقابلات الحالات :

قال الله تعالى (أولم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ، أو لم يروا إنا نسوق الماء الى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرن).

فقد طابق أولا قوما ماتو بعد حياة لقوم يعيشون بعدهم فى أماكن ثابتة، ثم قابل فى ومضه بين تعاقب الحياة والعمران على قرى هلك من فيها واندثر ، وبين زرع وحياة متفاعلة من أرض قاحلة ميتة فالتقابل بين لونين من الحالات ونوعين من الاحياء وموقفين متفاعلين تذكره وعبره ودعوة إلى الله[1].

بل أرأيت كيف كان الطباق وسيلة برهانية جدلية لاثبات الوحدانية كقوله تعالى :" ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك " إذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر).

ثانيا: قد يؤدى الطباق لونا فنيا زاهيا مشعا إذ يتعانق مع المجاز أو الكناية فى نفس الألفاظ فيكون التركيز المؤثر ....

---

(١) التصوير الفنى ٨٨.

قال تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانا مهتدين).

(أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغون يخرجونهم من النور الى الظلمات).

فالضلال والهدى سلعتان والموت والحياة والنور النافذ والظلمات المتراكية المحسوسة رموز ناطقة للهدى والضلال ثم هل لحظت الحلقات القرآنية أو الدوائر عدم الهداية يلتحم بالضلالة والظلمات بالموت فى الثانية وهما ضلال والظلمات بالظلمات فى الثالثة : تبارك الله.

ا - التقابل الزمنى :

للقرآن اسلوب فريد فى جمع زمنين من الثلاثة أو كلها فى لمحة أو بكلمة رغم البعد بين الازمان فالدنيا والآخرة حاضرتان يتواثب بينهما الخيال بين حاضر مرئى وآت غيبى ، كأنه قد محى الزمان فلا زمان . إن فكرة الزمن بشرية تثقل كاهل الانسان انظر قوله تعالى "ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابه وهو على جمعهم إذا يشاء قدير".

فالدواب المبثوثة فى السموات والأرض افنانا على مدي يضل فيه الخيال تجمع كلها وتنكمش رقعتها فى مدى مرئى منظور وأقرأ:

قـوله تعـالى " هل أتى على الانسـان حين من الدهر لم يكن شـيـئـا مذكورا ، إنا خلقنا الانسان من نطفه أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصـيـرا ، إنا هديناه السـبـيل أمـا شـاكـرا إمـا كـفـورا ، إنا أعـتـدنا للكافـرين سلاسل وأغـلال وسـعـيـرا إن الأبرار يشـربون من كـأس كـان مزاجها كافورا" .

فهاهو ذا الانسـان ينقلب فى صور أكثر من ثلاث ، تقابل بين الإنسان حاضرا وماضيا بعيدا حين كان عدما ثم التقابل بين ماض غير بعيد وهو نطفه امشاج لاتسمع ولاتبصر وبينه سميعا بصيرا ثم مـقـابله سلوكـيـة بينه شـاكـرا وكـافـرا وعلى ذكر الكفر تأتى الآخـرة : ألوان من عذاب حسى ونفسى لكافرين، تقابل الأبرار منعمين حسيا نراهم يتناولون كـئـوسـهم المعطرة فى هدوء ونعـيم والمقـابلة بين صـور النعيم والعذاب فى الآخرة أكثر من أن تذكر ويمكنك مراجعتها فى مشاهد القيامة للمرحوم سيد قطب.

والآية " إنا خلقنا الانسـان من نطفـة فـاذا هو خـصـيم مـبين " فـالصـورة الحـاضـرة - هى صـورة الانسـان الخـصـيم المبين والصـورة الماضية هى صورة النطقة الحقيرة وبين الصورتين مسافة بعيدة يراد إبرازها لبيان هذه المفارقة فى تصرف الانسان ولذا وجعل الصورتين متقابلتين وأغفل المراجل بينهما لتدى المفارقة الواضحة هذا الغرض الخاص بالتقابل المثير بين حال وحال[1].

---

(١) التصوير الفنى ٨٤.

فالمقابلات بما تثيره من مشاعر ، وماتؤديه من رعب ورهب وتصوير مضاد من الأساليب التربوية الفنية والنفسية.

وكثيرا مانجد تقابلا زمنيا يتتابع وحالات تتغير ومواقف تختلف والمتحدث عنهم أو الشخصيات هى هى ثابتة وتأمل: قوله تعالى : " لآدم وحواء ولإبليس" : " قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتيكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).

فقد جمع بين ابليس وآدم وحواء وقابل بين حاضر آدم وحواء وبين المستقبل القريب .

وقال تعالى (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ، اعملوا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون).

فقد جاء التمثيل ليقابل أحياء الأرض بعد موتها تصويرا للإيمان بعد عدمه بقلوب مرجو لها الذكر والخشوع بعد الغفلة والقسوة.

وقال تعالى :

" وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم؟

قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو يكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون".

فهناك حالتان متقابلتان الثانية دليل على الأولى البعث واحياء العظام وانبعاث النار من ضدها شجر اخضر ، وتكثر هذه المقابلات المؤثرة بين أقوام كذبوا الرسل فأصبحوا هالكين ، بين حياة وجدال وتكذيب وبين موت وهمود اثارة للعبر بهذا التصوير البالغ ووعيد لمن عميت بصيرته ، وأبعد فى الضلال كقوله تعالى فى عاد قم هود عليه السلام :

(وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) وفى ثمود قوم صالح عليه السلام :

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها).

وفى قوم لوط عليه السلام (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك) وفى مدين قوم شعيب عليه السلام (وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها) تتبع مصارع الاقوام فى سور الاعراف والقصص والشعراء مثلا تجد مقابلات تنبض بالتأثر والعظة والقهر الراجف وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم (شيتنى هود واخواتها).

التقابل بين النماذج البشرية :

وقد تقدم منه الكثير هو عديد لاحصر له بين مؤمن وكافر أو مؤمن ومنافق ، وبين أهل الجنة والنار ، والرسل واقوامهم والمستضعفين والمتكبرين ، وموسى وفروعون ، والجن ، والانس والملائكة ، فكل نوع بخصائصه وسماته يعد نموذجا فريدا ونكتفى بهذه النماذج : قال الله تعالى :

للذين احسنوا الحسنى وزيادة ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كانما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون).

(يوم تبيض وجوه وتسود جوه فاما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون).

(وأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك إن ربك فعال لما يريد وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ).

وتلحظ أن النموذج الأول (الذين احسنوا) انطوى تحته سبع مقابلات :

الذين كسبوا - السيئات - جراء سيئة بمثلها - ترهقهم ذلة - مالهم عاصم - اغشيت وجوهم- أصحاب النار . يقابلها: الذين احسنوا - الحسنى - زيادة - لايرهق وجوههم قتر - ولاذلة - اصحاب الجنة . وقد تداخل مع المقابلة : التقديم وحذف مايقابل - مالهم من الله من عاصم . اكتفاء والتصوير بالمجاز والتشبيه مع الظلال العديدة والايحاءات المديدة والأصوات المطوطة ودقة البناء والمقابلة فى الآية الثانية حسية فى الألوان نفسية فى التكريم وتوبيخ بين نموذجين وكذلك الثالثة . وراجع سورة الليل ففيها الكثير.

وهذه النماذج، والحالات المتقابلة كالتقابل بين المؤمنين وصفاتهم وجزائهم وبين الكافرين وسياستهم وجزائهم ، أو مشاهد النعيم ، ومشاهد العذاب قد تأتى معطوفة موصولة وقد تتوالى مفصولة دون عاطف لأن التلازم بين الحالتين فى العقل والواقع يثير سؤالا هذا حالهم فما بال مقابلهم فهو من شبه كمال الاتصال اشباعا لتطلع نفس وعقلى.

كالآيات فى أوائل سورة البقرة فقد ذكر المتقين وصفاتهم ، وجزاءهم " أولئك على هدى من ربهم وأولئك المفلحون ... ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون".

وقد ادركت مما مر بك أن أساليب الطباق لاتنفصل عن أساليب الاداء البلاغية الأخرى ، بيانا أو معانى أو بديعا تأمل قوله تعالى "مثل الفريقين كالأعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا

" فقد جمع " الفريقين" ثم فرق " الاعمى والأصم والبصير والسميع ، مع الإيجاز بحذف الفريق الأول والثانى ، والمقابلة التى جعلتهما ماثلين فى الحس والخيال ، مع الانسجام الصوتى الهادى ، كل ذلك فى اطار من التمثيل لحال المؤمن والكافر ، ثم أتبع الخبر باستفهام انكارى مثير.

وجمع ماتفرق ، ورد العجز على الصدر بكلمة "مثل" فكانت الآية حلقة متماسكة تشع اعجازا وجمالا وجلالا.

وقد سبق أن بينت أن الطباق والمقابلة فى القرآن الكريم تحتاج جهودا صابرة ومراجعات دقيقة لأنها تدخل فى أسرار التراكيب ودلالات الالفاظ ، ومواقعها ومايعتريها من كيفيات بلاغية كالافراد والجمع ، والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير الى غير ذلك من الدراسات الخصبة التي تثري العلم والله الهادى الى سواء السبيل .